سلسلة قصص قصيرة (6)

ينشرحُ ويختفي للأبد

جمال الجزيري

حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

طبعة أولى

مايو 2015

سلسلة قصص قصيرة (6)

سلسلة تصدر عن حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

المؤلف: جمال الجزيري

العنوان: ينشرح ويختفي للأبد

التصنيف: قصص قصيرة [فن السرد، أدب عربي معاصر]

الطبعة الأولى: مايو 2015

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

الناشر: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها حمارتك العرجا، على إيميل الدار باسم الدكتور جمال الجزيري:

hemartak@gmail.com

إشارة

كتبتْ قصص هذه المجموعة في تسعينات القرن العشرين

مفتتح: دردشة جانبية

جميل أن أراك تبتسم في تلك الأوقات العصيبة. بديع أن أسمعك تترنم بأناشيد الحياة وأنت على شفا جرف من السكون. سلام لك سيدي وأنت تمرح بين المروج المتجمدة تحت قدميك أو عند مخيلتك. ما أروعك وأنت تضحك ساخراً في طريقك إلى المقصلة. عيون قد قالت كلمتها وانطفأت. تركتك وحيداً وخلّفت ظلاماً دامساً في قلبك وحياتك، لا تبتئس، سيدي، فالمجد لك.

1997

إظلام

خطواته لا تتعدى بضعة سنتيمترات. يقاوم السقوط وهو يصعد الانحدار الترابي في الطريق. الشمس بلونها الدامي لم تتوسط السماء بعد. يتعجب:

- كيف تتحمل العمارات المبنية على جانبيه الانحدار؟!!!

مازال على بدء محاضرات اليوم وقت قد يصل فيه. نفير العربات وهي تغدو وتروح فوق الكوبري أمامه يزيده استرسالا في أفكاره وأحاسيسه. لا يمنعه من الاسترسال خواءُ بطنه ولا نومُه المجهَض الليلة الماضية.

***

بينما هو منهمك في مذاكرته بعد منتصف الليل، سمع خبطات قوية على باب حجرته. لولا أنه جرى بسرعة وفتحه، لانكسر....

دخلت عيون كثيرة وأياد وأرجل تعبث بمحتويات غرفته: قلّبتْ كتبه وأدواته. ألقت بالمرتبة من على السرير، وبالألواح الخشبية وراءها. عبثت بدرج المنضدة الصغير. نبشت محتوياته: الأقلام والدواة والدباسة وألبوم الصور القديم وخطاب أرسله له أحد أقربائه من القاهرة و... فتشت الكتب. قرأتْ الخطاب إلى آخر سطر.

وقف مفتوح الفم لا يستطيع أن يفعل شيئا.

سكبت الأيادي وابور الجاز ذا الشرائط لعل شيئا يكون بداخله. أُخرجت الصور من الألبوم وتفحصتها العيون: تأملت صور أمه وإخوته وأخواته، وعندما لم تجد شيئا تريده، ألقت بها على الأرض. وقع بعضها على الجاز. كل عين قرأت الخطاب مرات.

لم يستطع أن يفسر أي شيء. خيوط الأفكار تواردت على ذهنه، يسحب بعضها بعضا إلى أن وصلت إلى ليلة زفاف أخيه. فبعدما دخل أخوه شقته وخلا بعروسه، خرج هو إلى الشارع عله يجد تاكسيا يوصله إلى سكنه الجديد أو

بالأحرى غرفته الجديدة... وجد نفسه في بوكس ألقى به في غرفة ضيقة ومظلمة تتخللها، أحيانا من بين أسياخ الباب، بعض الأشعة المتسللة من لمبة كهربائية بعيدة. جلس لا يدري ماذا يفعل، بل لا يفهم ما يحدث...

وجد أناسا يدخلون عليه من حين لآخر: يجلسون بجواره ولا يدرون ماذا يفعلون.

قلبه يكتوي بروائح عفنة زنخة تنبعث من أحد أركان الغرفة. لا يوجد أي شيء يبعث على السرور أو حتى يدل على قرب الفرج: لا شباك أو دورة مياه أو حتى حنفية للشرب. تنبعثُ إلى أنوفهم الرائحة الزنخة المنتشرة في كل سنتيمترات الغرفة. الهواء راكد، وكثرة الأنفاس والأجساد ألهبته. تساءل:

- هل العالم في هذه الغرفة أم خارجها؟!!!

لم تعد الغرفة تحتمل القادمين الجدد: إذا نام بعضهم على البلاط، لم يستطع الجزء الآخر حتى أن يقعد منكمشا

ضاما أرجله. متكئا على أحد الجدران، خلع حذاءه، وضعه بجانب رأسه وحاول أن ينام واقفا...

كلما حاول أن يغفو، أيقظه صرير الباب الذي يفتح ليدخل بشر جدد.

وهو يحاول أن يتصيد بعض خيوط النوم، وجد أحد زملائه يفتح سوستة بنطاله ويترك لبوله العنان. فتقلَّبتِ المياهُ الراكدة في الجردل البلاستيكي أسفله، وانبعث في الغرفة رائحة قاتلة. اضطر كل واحد منهم أن يسد أنفه حتى بكُمِّ قميصه.

لم يجدوا مخرجا إلا الكلام والنكات الساخرة والضحكات المستهزئة بكل شيء. علت الضحكات الحزينة... لم يسترسلوا فيها. فصوتٌ أطلَّ من بين الأسياخ الصدئة في أعلى الباب سبَّهم، بل هددهم....

ظل وقتها أربع وعشرين ساعة لم يدخل بطنه غير المرارة والألم و...

عندما خرج إلى الشارع، فتح سوستة بنطاله، أفرغ مثانته على الإسفلت، جرى وهو يقهقه ويكركر. لم يلتفت إلى العيون التي تنظر إليه باستنكار.

***

خرجت الأيادي والأعين والأرجل. لم يفق من ذهوله إلا والباب يصفق بعنف. نظر إلى أشياءه المبعثرة هنا وهناك. وجد قاموسه ملقى على الجاز. رفعه بسرعة ليتأكد من وجود نقوده بداخله.... لم يجد شيئا. همّ أن يصرخ. لكن العيون الحجرية المتفرسة من السقف الأسمنتي أخرسته...

لم يستطع حتى أن يعود إلى المذاكرة أو يرتب محتويات غرفته. نام على المرتبة وهي ملقاة على الأرض. انبعثت إلى أنفه رائحة الجاز زنخة. لم يحس برغبة في أي شيء إلا أن يترك المصباح مُضاء ويتأمل فراغ الغرفة، بعد أن سحب السرير ووضعه خلف الباب الذي أوصده جيدا.

21 سبتمبر 1994

ظلام

أيخشى، بل أيخشون، شعلة بروميثيوس أم يخاف علي الظلام المتجمد داخله ويسري في عروقه ودمه الثلجي أن يتفتت؟ أيرتدى عباءة النور المخادع والمخدوع في آن وتلك الشعلة البشرية ستثبت حجريته وغباءه؟ ماذا يظن بذلك العقل؟ أيريده أن ينطبق مع ظلام عصور أولى تعلن ميلادها من جديد بكل صلف وغرور؟ لماذا ذلك الإجحاف المنسوجة منه عباءته؟ أيريد كل من بعده أن يخرج من معطفه فقط وإلا شجبه وأدانه وسحقه؟

قال بكل سلاطته المندثرة خلف براويز الحكمة المراوغة:

- لا.

ووافق جزء مخاتل من مجمع الكرادلة:

- لا يمكن أن يدخل هنا ، سيـ...

هنا، هنالك حيث يريدون المكان أن ينحصر وينغلق عليهم، فترتع ثلوجهم وتطفو قمماً على جبال الأوليمب تحاول أن تطفئ كل شعلة تتفجر نوراً وناراً برغم الأغلال والصقر الذي ينهش في كبدها ليل نهار. رمادهم الغبي، عيونهم الكريستالية، صلفهم المبنى في الهواء. انطفئ يا شعلة منطفئة.

ساورته الشكوك في معناهم ومغزى نفسه، لكنه عاد وآمن بنفسه وبكل النفوس التي تريد أن تشتعل.

ألقى النول من يديه. لا يريد أن يغزل كفنه ويفكه في الصباح ليغزله في المساء مرة أخرى.

- أتريد أنتَ؟
- لا. كيف أفعل؟ لا، هم الذين يجب أن يغزلوا أكفانهم، فإن كفنهم ميت وهم ميتون.

لا يريد أن يرفع الصخرة ويلقيها ليرفعها مرة أخرى. الصخرة من صنع أيديهم.

- أتريد أن..؟

- نعم. أريد أن أحطمها وأقوِّى بأجزائها دورات المياه.

- لا. هذه ليست فكرة جيدة: ستجلب الظلام الداكن والبرودة الغبية حيث سيصاب الإنسان بالنزلة وهو مسلِّم ظهره، آمناً لها. وربما حدثت له أشياء أخرى داخلها، من يدرى؟!

ساوم القلم علي الاستمرار في الكتابة، فدموعه التي تغلي داخله تخفف الحبر. ابك خارجك يا قلم. ازرف الحبر علي الورق. فالحروف بانصهارها واكتوائها ستتشكل كلمات ذات معنى تسحق لامعناهم وتبيد العدم فيهم وفي كلامهم. أعرف أن هذه الكلمات تغيظهم وسيقولون مرة أخرى:

- لا.....كيف يدخل بيننا؟ عيناه شاردتان. لا تريدان أن تستقرا علينا. ينظر إلينا بإنكار..

وقّعوا علي كلامهم في التقرير!:

- لا. تُلغى المسابقة والأعمال المقدمة.

أكنتم تظنون أنها مُقَدَّمَة لكي تتوقف؟ أين يوجد التقدم إذن؟ وأين توجد الحركة؟ كيف يُقتل السكون إن لم يُعدم هكذا؟ أتتيمنون بأنفسكم وتدينون من يتيسر بنفسه؟ أتبتغون من يصالحكم؟ لا . الصلح ليس بخير. لا تصالح، سيدي، ولا تهادنهم.

علامات بارزة في سماء الظلام، من صنع نفسها، تدكّن لونها وتطليه بكل أنواع القار وهي لا تدري أنها أحجار من خلطة نفسها، تماثيل، لكنها لا تريد أن تحطم نفسها. لابد ستتحطم. الكبير قادم. أو أنه قدم وهو الآن في مرحلة العلاج ورأب الصدع.

- أترى يا سيدي المفارقة؟
- نعم أرى وأحس.

إنها تخاف الموج الهادر أن يقتحمها فيفتتها وتنمحي آثارها تحت سيول الأمطار في كثبانها الرملية. وتصبح شيئاً غير مذكور: لاشيء كما هي دائما.

المجد لك يا دنقل من قلت لا في وجه من قالوا نعم. أتعتقد أنهم يستوعبونك؟ ربما لا يعرفون اسمك، فجدرانهم الصلدة تحجب أشعتك عنهم.

ربما عرفوك، لكنهم تجاهلوك وأرادوا أن يجهّلوك.

وربما فهموك يا سيدي، لكنهم حرّفوا كلامك من بعد ما عقلوه. زوّروا تاريخك في عقول أنفسهم التي ربما كانت في البدء كلمة لها معنى، لكنهم حرّفوا حروفها لتصبح "لكمة" في وجه كل من يريد أن يقول المجد لك واللعنة "لهم".

هم الذين يساومون الزمن علي حركته ويماطلون الأيام علي دورانها في فلك حياة حيه يقظة تريد أن تقول:

- أنا هنا.

ولكنهم ليسوا بأبناء حلال: يريدون الجاه وكثرة المال المكتنز في صدورهم العفنة. لا. لا تساوم. لا تبتئس: فالعزة

للشعلة والمجد للنار والدمار للعرش الزائف والحريق للقلوب الصدئة والعقول النتنة.

داروا في فلك ردود أفعالهم المظلمة واستمروا في محاولات إقناعهم الزائف. لا تستسلم لهم. أعرفك جيداً. وكيف لا أعرفك؟ تتوحد معي في أوقات، وأوقات أخرى تنسحب خارجاً لتعود أقوى وتمدني بقوة مؤمنة بنفسها وبكل النفوس التي تريد أن تصير كلمة من الكلمات.

يلوون ألسنتهم بأطراف الكلام ليصير ملاماً ومَلِكًا جبروتيَّ البطش يستخدم الجامع والمجمع والجامعة ضِراراً وكُفراً بكل الشعلات والنور والنار.

لا تخضع لجبروتهم فالمجد لبروميثيوس ولأولاده وأحفاده وكل من ينتمي تحت لوائه. لا تبتئس بالصقور التي وظّفوها لتنقر في أكبادك أنت وأصدقائك.

دارت رحاهم وطحنتك وينوون أن يخبزوك ويلوكوك بأسنانهم الحديدية. لا تتراجع . فأنتَ لن تنمحي، أنت روح سرمدية خالدة في أرجاء الصفحات والكلمات. ألا يكفيك

جلساتك في المقهى مع زملائك وأصدقائك في القلم الذي أقلم نفسه علي تقليم الزيف ولعن موائد الآلهة!!

أداروا حوارهم في مشاهد سينمائية هزلية تحرك شريطها آلة يديرها غباؤهم، وعنادهم الذي اشتقوا لأنفسهم منه "عدن" يمرحون فيه ويحتمون به.

يا عيون الرنو والغد والطموح والتطلع! يريدون أن يقتلوك معي بنفس الأسلحة ونفس الحيل المتجبرة؟ ألا يعرفون أنني أعشقك؟ تعال يا حروفي وتراقصي. ابتعدي واجمعي الرحيق والترياق. تشكّلي في أي شيء شئت، في أي شكل أردت، في أي نص استهويت، في أي كتابة خلقت. لك المجد. المجد الأسود في عيونهم يناديك نحو الأعمق. ولكنني أعرف أن عندك المركبة والزورق ونعرف الشطوط التي نريد أن نرسو عليها.

- ماذا تفعل؟ أهي محاولة لتخفيف الألم؟
- ماذا تفعل أنت؟ أهو هروب في كتابة رومانسية زائفة تأله أبطالاً ليس لهم وجود فعلي؟ وجودهم فقط

زائف يسير إلي زوال بفعل ميكانزمات تفكيرهم الغبي؟

- ماذا تفعلان أنتما "الاثنان"؟ كفا عن هذه الشوشرة. أنني أرغب في أن أغازل معشوقتي، تجتاحني شهوة فيها وتوحد كامل بها.
- أتستلذ الكتابة؟ أعرفك نشوتك وأنت ترى الكلمات ترتفع شاهقة على أرض النص أمام عينيك.
- استمر يا سيدي. فليباركك حبرك ولتمجدك حركاتك وكلماتك. ولا تخف، فكلهم دمى يحركها غباؤهم.

ولكن "أنفسهم" لا تريد أن تخرج من بيوتهم في نهاية المسرحية لتبدأ الحياة. لا يدركون مثل هذا الأشياء فإنهم مجرد أشباح للماضي السحيق بظلامه المتراكم في طياته. يريدون أن يُفْزِعُوا من؟ كذب من قال إنهم شياطين.

- أأنا الشيطان؟
- إذن المجد لك!

- المجد لمن؟

- لا تبتغى المجد. أحس بك. تبتغى فقط الوجود والتحقق..

لا يضبطون المشاهد جيداً، انظر! الإضاءة زائدة تمحي حتى أشكالهم، أصواتهم فقط في دائرة الإدراك. الأصوات قوية كأنها تُنطق في مسرحية ميلودرامية شاجية تستدر تعاطف لجنة التحكيم وتستجدى استثارتها.

أجزاء الصورة غير مضبوطة.. تسمّع! أصواتهم لا تحافظ علي وحدة الخطاب.

- انظر!

- أنظر ماذا يا صديقي؟

منظرهم يجذب الانتباه من أول وهلة. رؤوسهم صغيرة جداً. أجسادهم منتفخة ومتضخمة.

- ما هذه الأشياء التي تحت الكراسي؟ أهي فضلات؟

- يبدو ذلك، دقق جيداً.

- نعم هي فضلات.

- ما هذا الذي تفعله يا صديقي؟ إنهم لا يستأهلون كل هذا الجهد. أتجهد قلمك في أوصاف غبية؟ ألا يكفيك أنهم هم أنفسهم أغبياء؟ أتريد أن تملأ الصفحات أيضاً بالغباء؟ أنجحوا في أن يصيروك غبياً مثلهم؟ تصف غباءهم بكل تفصيلاته الغبية؟ ارجع يا صديقي! وفر جهدك وانو السفر في أدغال الصفحات تستكشف بقلمك أسرار الأسرار. إنهم..

- يبدو أنك علي حق يا صديقي، يجب أن...

11 ديسمبر 1995

أراغب عنّا؟!

ورث الفتى الصبر ولكنه لم يرث التكاسل أو التخاذل. انطلق عبر الحدود المرئية وغير المرئية يبحث عن.. أحلامه، ويحاول أن.. يمسك.. بأشياء عزيزة عليه. أحس بالبتر عندما قذفت به الأم خارج رحمها – الذي ربما لم يكن له وجود – ووجد نفسه في الخلاء والعراء، فلا النجوم الشاحبة في سماء تدفئه، ولا الريح المنسّمة تزرع في قلبه الانتشاءَ أو حتى تنفُّسَ الصعداءِ.

علت الأمواج... تقاذفته... فالسوائل المُذابة لا تجعله حتى يحس بطعم العوم المتحدى، ولا هي تجعله يحافظ علي اتزانه واستكمال طاقاته لتفادي الغرق أو حتى الإحساس بطعمه.

(ضربتني الأيادي غير المنظورة، تلصصت عليّ العيون واسترقت النظر، خلعت ملابسي ودققت، طعنتني الخناجر المتحجرة، جمعت خيوطا في أماكن لامرئية ولكنها محسوسة، وضفرت حبالا سميكة لَفَّتْها حولي.. بطاقتي

سرقوها منى - لا أدرى كيف. أتكون ذرات الهواء محملة بمواد كيميائية جعلتها تتحلل واحتوتها داخلها، أم كونتها مرة أخرى وسلمتها لمكان سري غير مكتشف لنا بعد؟)

ورث الفتى الصبر ولكنني لم أرث الجمود والعدم.

- من جاء بك إلي هنا.

- جئت أبحث عن نفسي.

ما معنى كلمة "نفسي" هذه التي تقولها؟

- "نفسي" يعنى "أنا".

- أتعرّف الشيء بشيء أصعب منه؟! الويل لك.

قال ذلك الصوت بمداعباته المعهودة وغنائيته الرقيقة دون أن يمتد سوطه:

لسوع لسوع

واوع يفلسع

اضرب اشتم

وإياك ترحم

فلم ترحم السياط ولم تذرف الدمع الشتائم، وحوصر في ركن ضيق لا يجد حتى ذرة هواء نصف نظيفة يستنشقها.

(كيف أحلم بذرة هواء حتى ربع نظيفة والمكان ملئ بالقاذورات وفضلاتهم؟!!)

ورث الفتى الصبر، ولكنه لم يمضغ طعم الصبار إلا الآن.

(لم أعرف التجهيل وألمسه وأحسه إلا في تلك الأيام المستطيلة في عمق الزمن، والزمن صدى لكتب عطنة تزكم خلايا المخ.)

فقد الفتى إيمانه بالوراثة والتوريث عندما رأى الحقيقة منومة في حضن "قمر" ممهور بـ "لا تقترب" وعنوان جانبي "اسجد".

(وأنا لا أستطيع أن أقترب أو أبتعد ولا تستطيع أنت أيضا ، فكلنا موجودون فيها وهى جزء لا يتجزأ منى أو منك.)

صمت عقله للحظات يحاول أن يستجمع فيها ملامح كان يعرفها، باءت محاولاته بالفشل، استشرت المرارة في روحه، شعر بأنه يتضاءل ويتباعد عن مركز الدائرة التي ربما لم تكن إلا وهم داخلي:

- ما معنى كلمة "نفسي" التي نطقتها؟! أتتعالم في هذه الحضرة؟

- نفسي يعنى وجودي، ذاتي، تحققي، تكوني، هويتي...

- سجل هذه الأسماء كي نستجوبه فيها.

سجلت الأسماء، كتبت بخط أسود كبير وسهم متعمق في أحشاء كل كلمة منها.

(غصة في لساني، محاولات الرد والتفسير عقيمة، أممت أفكاري، صليت بها في محراب عقلي وأحاسيسه،

دنياي وآخرته، آسف آخرتي. أحسست بأن نهايتي اقتربت/ ابتعدت. كيف أستسلم؟! الصبر مفتاح الظلمة والظلمة السكون، السكون العدم، العدم الذوبان، الذوبان اللاشيء، اللاشيء التلاشي، التلاشي حاصل التفتيت والانقشاع حيث الصفر يكون ناتج كل الأرقام.)

- ماذا تقول؟!

- لا أقول شيئا..

- ما هذه الكلمات التي توجهها عينيك [*هكذا في الأصل*] وتسب بها الحضرة والجواري؟

- أأنا أسب الجواري؟ هن لا يجوز عليهن إلا الشفقة والعطف فإنهن مغلوبات.

أتتكلم بلغة لا نفهمها وتتفاصح علي أسيادك وأسياد الملايين أمثالك؟

الجواري متحلقات حول الحضرة يعزفن الأنغام والتراتيل ويمارسن الرقصات والعري المؤلم والألم المكسو

بطعم الحرير والجواهر والبساتين. والعبيد المخصية تطوف بالأقداح وكل ما لذ وطاب من أصناف الطعام التي يعرفون طعمها أو لا يعرفون، وهم في حركة دائرية لا تخل ولا تنقطع، فالسياط المعلقة علي الجدران شاخصة أمام أبصارهم: يعرفون طعمها جيداً ويضطرون للي ألسنتهم كي لا يتصادم كلامهم مع كلامها...

(معذرة يا صديقي، سأمارس الصبر هنا وأتولى مكانك النقش بالقلم علي بياض الصفحات، أعرف أن ما سأكتبه لا يساوى ذرة مما كنت ستكتبه، أعرف أيضاً أنني لن أستطيع إلا أن أرسم لوحة ناقصة. اغفر لي صديقي ، فعزيزي القارئ سيكمل معي الصورة.

- أأنت علي استعداد يا عزيزي؟

- ..

- إذا هيا بنا نبدأ.)

مثلوا بجسده، صلبوه علي ذلك العمود السرمدي...

- ما رأيك يا عزيزي؟

- لا!

حسناً، قطّعوه أجزاءً مجزأة وألقوها في كل البلاد، لكنه لم تنهش لحمه الطيور الجارحة أو غير الجارحة، كل الطيور كانت تأتى محملة بالماء في أفواهها وتسكبه علي الأجزاء علها تنبت، فجُهزت المقاصل لكل أنواع الطيور،

- ماذا تقول يا عزيزي؟!

- ...

- أنسيتُ شيئا؟!

- ...

- أشياء؟!

- آه، أنت علي حق عزيزي.

وأُعِدَّت النيران لسيدنا كبير الطيور، فطار طائر وارتفع، لكنه لم يقع، فربما كانت هناك سماء أخرى وأرض أخرى...

- ارفع صوتك، لا أسمعك جيداً...

- ...

- وأراضين أخر!، إنك ذكي لمّاح يا عزيزي.

أطلقت وراءه السهام الصاروخية، تستقصي أثره وتتبعه، فتتبعته الطيور بعيونها الباكية، انفطرت القلوب...

- ماذا؟ لا أسمعك، أكمل أنت، هاهو القلم...

نوفمبر 1995

مطاردة

ولأن الشاي لم يكن علي ما يرام، وصديقي متقلب المزاج، وعامل المقهى غير بشوش، والتليفزيون غير واضح الصورة، والصوت مشوَّش، ولاعبي الدومنيو حولي بدءوا في الاشتباك بالألسنة الحادة وفي لعنِ كل من يتدخل لتبريد ما بينهم من سخونة، وأفراد الصحبة يترقَّبون يوما يأتي محملا بأمنيات الشتاء المطيرة – الصحراء تتسع تدريجيا وأحياناً فجأة – فقد دخلت المعرض حالما بشراء كتب كثيرة مرادة في هذا المهرجان السنوي...

لكنني عندما تصفحت الأغلفة الخلفية أو الأخيرة، أحسست بانقباض مفاجئ – ربما كان متوقعاً – ودُرت، وفي طريقي للسقوط سندنى صديقي. لكن لم يكن هنا مفر، فسقطت مشيعا بالنظرات الغريبة أو المواسية أو... لبعض الرواد، وأحيانا تـندر ضحكة من أحد الشفاه الرقيقة...

خرجتُ، كان الوقت متأخرا جداً، ولأنني لم أجد أي أتوبيس، ولأنني حمدت الله لأنه أنجاني من أي أتوبيس يقع

بي من فوق الكوبري في النيل، فأنني توسلت بقدميّ وسرت غير عابئ برزاز المطر الذي بدأ ينزل رويداً ثم كثيفاً ثقيلا يُهبطني داخل ملابسي التي لا تستطيع أن تستقبل مثل هذا "الضيف الثقيل"[1].

ارتويت مرغما. ضحكت من نفسي عندما كنت أتمنى في النهار أن يحل المغرب بأقصى سرعة حتى أفطر وأروى ظمأ لا تخفف منه أطعمة مختزنة في جسدي.

هدأ لاعبو الدومينو، ولكنهم سرعان ما عادوا إلي اشتباكهم حامى الدماء. أشار أحد الرواد إلي حجر الشيشة بجواره، فقدّم العامل النار مبتسما علي غير عادته. لم أتبين السر إلا عندما نظرت فوجدت الرجل جالسا وشيشة من نوع خاص جدا بجانبه.

عندما أوشكت أن أصل إلي مسكني كانت قدماي قد تورمتا تماماً وكنت علي وشك الهلاك. استقبلتني والدتي بالصراخ، وقبل أن تقدم لي طعام السحور كنت قد نمت...

[1] ***الضيف الثقيل*** مسرحية لتوفيق الحكيم ربما كانت مفقودة وربما تم العثور عليها.

جبتُ ليالٍ حزينة وامتلأتُ بالدخان الثقيل، ثقلت موازيني ولم أعد بقادر علي أن أرفع ذاتي أو أخفض من شأنهم، عليّ أن أواجه التيار، وإلا انجرفت والتهمتني الرياح.

جرفتُ تراكمات عديدة وطمرتُ مخلفات أَعَدّ. تباطأت قدماي وقلبي وهن. وها أنا أطارد بقايا حزن قديم، طاردني الحزن وتعقب آثاري، دارت حولي المستكَّنات ولم تقعد، تطرقت إلي شارع جانبي، نمت فيه للحظات امتدت، قابلني أحد أصدقائي، أدار معي حديثا استطال قليلا، لكن قبل أن نصل إلى حل، حتى ولو حل وسط، تأزم الموقف...

استيقظت علي صوت سيدة تصرخ علي ابنها الصغير الذي سقط في بالوعة مياه المجاري، هب أناس قليلون من أماكن أكثر، ولكن الابن كان قد ضل في القاع، وكان قبله ثلاثة عمال صرف صحي قد ضلوا ولم يهتد إليهم أحد، اهتديت إلي شارع خال فدخلت فيه، حاولت أن أستريح...

استيقظت مرة أخرى علي صوت جدار يتأوه، ففزعت وفررت صارخاً، ظل صوت الجدار يترجرج في أذنيّ،

أمسكت الكتاب المقدس، تصفحت فيه للحظات، لم أفهم كلاما كثيراً من"عربيته". تمنيت أن تكون لدى نسخة إنجليزية منه في ذلك الوقت...

هرولتُ وقبل أن أصل إلي نهاية الشارع، سقطت....

عندما استيقظت كانت الشمس تتهاوى في الغروب. بعدها ظهر القمر مخنوقا، فشربت جرعة ماء، وسمَّيتُ وحوقلتُ وخرجت. مضت بعض الدقائق الثقيلة فمضيت بجوارها مكرها ولأنني... فأنني بدأت في تمزيق ما أكتبه، تاركا ضجيج التليفزيون يسيطر علي الساحة واكتفيت بفنجان قهوة سادة.

1994

أسطورته

(1)

المقهى يلعن تلك الوجوه العابسة الجالسة تثرثر باقتضاب، والهواءَ الساخن الذي يلسع جدرانه:

- الله يرحم أيامك يا زعيم .

- قتل كل الحراس.

- شجاع

- ضرب من على الكرسي بالقلم ، وكسّر الكرسي.

رجل جالس على كرسي ليس ببعيد. يزفر دخان الشيشة في الهواء، وهو يحدق في نقطة لا مرئية.عندما يصل كلامهم إلى مسامعه، يتمتم بأشياء، يضرب كفا بكف في الهواء أمام عينيه، ولكنه يتدارك، فَيُنْزِل كفه ليغطى بها فتحة بنطاله على فخده.

رويدا تختفي الوجوه العابسة. تحلُّ محلَّها علاماتُ ارتياح. تتبادل الأيدي مباسم الشيشة. يزفرون الدخان فيصطحب معه جزءًا من الهموم.

يكاد اليوم يرحل، ولا يبدو أنهم يودُّون الرحيل من على المقهى العتيق. يقلِّب أحدهم أوراقَ الصحيفة ويقرأ عليهم، فيزفرون الدخان ويلعنون الصحف وكل الكلام الأسود المكتوب. وعندما يَقْلِبُ الصفحة، يُعلي صوته في القراءة ويتهلل وجهه، يكبرون كلهم، فالقصة المكتوبة تعزف على أوتار قلوبهم المجروحة والآلام المدفونة داخل دمائهم:

- إسقاط على قصة الزعيم.

- الرمز موظف جيداً.

- المؤلف ذكى جداً.

- صوّر كل شيء في سطور قليلة.

الرجل الجالس بعيدًا يتمتم بأشياء، ويخفى بسمة حزينة تحاول أن ترتسم على شفتيه الضامرتين. ينظر إلى نفسه، ثم ينظر إليهم، ويضحك بهستيرية بالغة:

- الزمن مش زمن واللي عاز عمره ما ضمن.

يتمادى في الضحك فيه، وقبل أن يقع، يسرع أحدهم ويسنده:

- ما به هذا الرجل؟

- كان الله في عونه.

- يبدو مجذوبا.

- من يدري؟ ربما جعله الزمن هكذا.

- أين أنت يا زعيم؟ لو كنت موجودا ما كان حدث ما يحدث.

بعد أن يفرغوا من تعليقاتهم، يعودون إلى الشيشة وثرثرتهم المعتادة. ينظر إليهم بتأفف، ثم يترك مقعده ويدور هو وضحكاته فى وسط الشارع. يدور ويضحك، يضحك

ويدور، إلى أن تدور كل الأشياء حوله، ويفقد القدرة على تمييز أي شيء، فيسقط باكيا بحرارة يمكن أن تذيب قلوبا تنظر إليه بعيون قديمة. يبكي وهو يمزِّق قميصه القديم:

- هل يُعقل أن أمثِّل لهم كل هذا؟!!

تقف نسمةُ الهواء الباردة عاجزةً عن أن تُبْرِدَ جسمَه الملتهبَ...

عندما يملُّ المارة – المتوقفون – من ذلك المنظر، يتركونه يتقلَّب في الأرض وينطلقون إلى الطرق.

يكفُّ الجالسون على المقهى عن ثرثرتهم وينام فيهم الصمت الجامح، إلا دموعهم التي تزعج السكون وتندفع لتصعق الهواء الساكن.

يتقلب ويبكى، يضحك ويلتف، يذرف الدمع ويطيل السكوت، يلعق التراب ويبصق في وجه الهواء الساكن والمباني الصدئة، ينفجر الدم منه فيتوقف جسده ويسكن.

يقوم الرجل الذي يمسك بالصحيفة، يقطع خيوط الصمت الثقيل، ويغطي الجسد ـ النافر منه الدم ـ بالصحيفة والقصَّةِ المكتوبة فيها، ويعود إلى صمته.

(2)

قال لازمته المشهورة:

ـ الزمن مش زمن واللي عاز عمره ما ضمن.

وانصرف. تاه وسط الزحام ونظرة يختلط فيها الاكتئاب والحزن والإحباط والقلق تكتنف عينيه. عندما كانت تلطمه الأكتاف، كان ينظر بـ.... ولا يتكلم.

رأوه يعبر الشارع إلى الطرف الأخر دون أن يلقي السلام عليهم أو حتى ينظر بحزن. ظلوا جالسين في أماكنهم يتداولون قصصا وأحزانا. زمجرت رائحةٌ حميمةٌ فملأت المكان بآلام مبعثرةٍ. قال قائل منهم:

ـ نبنى قصراً من هواء طبيعي.

تمنَّى أخر:

- آه لو بنينا جامعة تجمع علماء أزمنتنا الأولى وعباقرة أيام أخيرة ـ حتى لو كانوا قد هُجِّروا.

تحسر ثالث:

- لو نستطيع أن نستخلص عبق التراكمات الطويلة.

حلم شاب صغير جالس في ركن غير بعيد:

- لو نصنع أسلحة جديدة أقوى.

ولكنه سرعان ما تدارك:

- أقوى من ماذا؟

لفَّهُم جميعاً الصمتُ عندما مرت نظاراتٌ سوداءُ تختال في زيِّها الرسمي وتتأفَّفُ من كل شخص يحاول أن يرسم علامة معبرِّةً عنه على وجهه....

وقف أحدهم ووضع يده في جيب بنطاله ليُخْرِجَ المحفظةَ ويحاسبُ على طلباته، فانطلق الرصاصُ من أماكن شتى. انهمرت دماءٌ حزينة مزمجرة. اختفت أرواحٌ تحت الكراسي أو تبخرت مع ذرات الهواء المترهلة. سالت الدماءُ

في مجرى فائرٍ وتدفَّقَتْ حتى عبرت الناحية الأخرى من الرصيف. لم يعقْها أي شيء، فقد اختفى كل الناس والحافلات.

عيونٌ محملقةٌ خلسةً من شبابيكَ مغلقةٍ شاهدته وهو يعود ونظرة الـ... في عينيه قد ازدادت اكتئابا وألمًا فائرا يعصف بكل ذرة من جسده وأجساد الآخرين. خلع رداءه وغسله في نهر الدماء. أخرج مطواةً صغيرة من جيبه وشقَّ جُرحاً واسعاً في يده، فطفق الدمُ يصبُّ في المجرى. ثم قطع جزءًا من قميصه المعمّد في الدماء وربط به الجرح.

عبر إلى الناحية الأخرى حيث يوجد منبع الجدول الأحمر، جلس على أحد الكراسي، وصرخ صرخة أفاقت كل المختبئين، فنهضوا وعيون الانكسار في نظراتهم تتصبَّبُ خزيًا واندثارًا تحت هالات خوف ما.

عندما أخذ يتكلم، ازدادوا خزيًا. انخرطوا في استماعهم منه أو إليه، فطُوِي الخزي تحت تدفقات الحماس أو النشوة. في وسط كلامه تركهم وخرج من حيث.... لبثوا ساهمين، ثم

خرجوا جميعاً في خطوات ثابتة، متوازية، جريئة، وساروا جمعياً في نفس الاتجاه.

(3)

دخل الحارة الضيقة، هزّ جدرانا هشة وصرخ صرخة أرجفت قلوبًا مفزوعة من قبل. كانت الأُسْرَة الكبيرة الضئيلة تعوي من العام الجديد القديم قدم الزمن الموبوء.

- أريد حقيبة للمدرسة يا ماما.

- وأريد المصاريف يا بابا .

- المدرس يضربني لأنه يريد أن يعطيني درسا خصوصيا.

- المدرَسة بعيدة يا ماما.

- ألستَ مدرسا يا أخي؟ تعالَ لمدرستنا كي لا يضربنا مدرس.

كان الأب صامتًا والأم أكثر صمتًا. ولما لم يسمع الأولاد أية كلمات تنبئ بعام حتى متوسط الجدة، انصرفوا

إلى غرفتهم المكتظة ببعض الأسِرَّة المتهالكة وأخذوا يعبثون بأشياء قديمة.

دخل عليهم الغرفة وهز الجدران، فانتبهوا له واجمين.. احتضنهم جميعًا، فبكوا على صدره المحمَّل برائحة التاريخ وانتصاراته المهزوزة. بدأ يلعب معهم ويربت على أكتافهم الفتية...

بعد أن ذهبت عنهم الملامح المتجهمة والحزن المتدفق، أعطاهم كل ما يملك من قروش قليلة وهمس فى أذنهم:

- الزمن مش زمن واللي عاز عمره ما ضمن.

وقبل أن تخمد دهشتهم، كان قد تلاشى عبر فتحات الجدران الهشة. جرى الأولاد إلى والديهم وأخيهم الأكبر، وجدوهم يرقدون كأنهم السكون بعينه، فصرخ أملهم الوليد فيهم – لكن السبات كان أقوى من نبضات الأمل، فرجعوا إلى غرفتهم ينظرون من الفتحات في انتظاره.

1996/1995

قارعةُ طـُرُقٍ

لم يتكلم. فقط نظر بذهول. مسح المكان بعينيه. ذرف الدم على ذلك السرير وذلك الجسد الذي ينساب في شهوانية بالغة مع شخص ما. أحس بقلبه يتفتت والدماء تُسكب وتختلط بمياه البالوعة. أغمض عينيه وخرج...

سار في طريق من الطرق المتشعبة، كل قَدَمٍ تريد أن تسير في طريق، ويريدُ قلبُه أن يسلك طريقًا أخرى، بينما عقله متمرد ولا يريد أن يأخذ أيًّا من هذه الطرق – أطلال، آثار، خواء، مسلك منحدر إلى ما لانهاية – يود أن يسلك درباً مغايراً لتلك المسالك التي تتحرك في "شهوانية بالغة"...

وصل إلى "شجرة السرو"[2] و"الرجل العجوز" جالس يبتسم و"البنت" مقيدة بسلاسل تحت قدميه بجانب "النهر" – تُقَدِّمُ له الكأسَ وهو يتحسس "ذقنه البيضاء" بيد وباليد الأخرى يعبث بثدييها وعيناه تلحسان "كنوزها".

2 شجرة السرو والرجل العجوز والبنت والنهر – كل ذلك من أجواء رواية البومة العمياء لصادق هاديت

شيء غير مرئي جرّه نحو ذلك العجوز. عندما بدأت الأشياء تدور حوله، حاول أن يفلت من بين يدي ذلك الشيخ، فضيّق العجوز على رقبته الخناق، وقبل أن تزهق روحه، ألقاه في النهر النائم تحت قدميه. وبالرغم من أنه لا يعرف العوم جيداً، قاوم السقوط.

وجد نفسه في صحراء جرداء. ارتمى من الإعياء وغاب تحت دوي الريح والأعاصير. أفاق على صوت لا يدري مصدره يناديه، نهض بخفَّةٍ غريبة. لكنه عندما حاول أن يجيب، ماتت الحروف في حنجرته واختفى الصوت. لم ينادِ مرة أخرى.

أحس بحيوية جديدة على حالته هذه، فاستغلها في السير. أفزعه انمحاء كل مظاهر الحياة حوله، تذكّر النهر. نَهَرَ الفكرة بسرعة. ظن أنه أُلقى به من فوهة "برهان" في هذا المكان، وربما قذف به من قاع "اكتشاف رهيب".

رأى أشباح جلابيب بيضاء قصيرة وأسِرَّة تتحرك وأزياء رسمية تتطاوس باستفزاز، فأغمض عينيه وهرول بعيدًا.

وبالرغم من أنه لا توجد طريق، فإنه حاول أن يسير في خط مستقيم كي لا يضيع أو حتى يذوب "من" تبقى منه وسط الرمال. هلل وجرى – بسرعة دقات قلبٍ مُقْشَعِرٍّ – إلى الأمام عندما لمح من بعيد طيفي شخصين على قارعة طريق.

وصل إليهما، وجدهما مهللين وأيديهما مفتوحة له. نظر إلى جانبهما، فوجد قطةً مشنوقةً معلقةً على الشجرة الجرداء التي يحاول برعم صغير أن يبرز منها:

- أوصلت أخيرًا سيدنا؟!

- مَنْ؟

- طال اشتياقنا.

- لماذا؟

- لأننا ننتظرك، كما أن خادمك أتى وقال إنك قادم الليلة.

- أنا من؟!!!

- مخلِّصنا ومنقذنا.

ردد داخله "الصمت كبرياء والحزن ضعف". جلس بجانبهما فقط من الإعياء. فرحين، أحدهما يمسح له العرق، والآخر يجلب له بعض نسيمات الهواء بقبعته وربما "بعمامته". لمح من بعيد أطراف مدينة قاصية في الاقتراب، فتركهما وسار نحوها. وعندما اقترب، لم يرَ شيئًا. تلاشت الأطراف والجسد. فمضى إلى حيث لا يعرف أو حتى يخمن.

زمجرت الأعاصير وثـقُلَ الظلام، فانبطح أرضًا. تحسس في الظلمة الثقيلة. وجد صخرة عالية فنام بجانبها...

داعبت الشمس عينيه فانفتحتا. لاحظ هدوءًا غريبًا يضم المكان، وهواء نقيا نسبيا يسري إلى رئتيه، فتنهد وأحس برضا دخلي لا يعرف مصدره. جذبت أسماعَه أصواتٌ

غريبةٌ تنبع من داخل الصخرة وتصب في قلبه. وبالرغم من أنه لم يسمع تلك الأصوات من قبل، فإنه أنس لها وأحس بأنه يعرفها منذ سنين. حاول أن ينشئ لحنا منها...

وهو مستغرق في تنغيم الأصوات، انفطرت الصخرة عن عيون حمراء رأسية تنظر إليه بحنو، لكنه فزع منها وجرى إلى قارعة طريق. رأى نيرانًا تشتعل وتغازل الهواء الحنون، فهرول إليها يطلب الغيث والمعونة والدفء. وعندما وصل، امتعضت عيون وضحكةٌ رجَّت الأرجاء. تحسَّسته أيدٍ، ثم ذهبت بامتعاض إلى الرجل الجالس على كرسي يعلو على مستوى النار بكثير، وربما يهبط عنها:

- ليس معه شيء.

- (يضحك بسخرية ويسُبُّ) أنشعلُ كل هذه النيران، ويأتي إلينا بعد ذلك رجلٌ أعزلُ من أي ثروات؟! خذ ملابسه (نطقها بخيبة أمل واحتقان ثم نزل يستدفئ).

خلعوا ملابسه، فجرى إلى أي مكان يدارى فيه سوءتَه. بحث عن أي نبات يقطف بعض أوراقه ليستر جسمه. جرى

في كل الاتجاهات. نقّب في كل الانخفاضات والارتفاعات. لكنه لم يجد إلا السراب وتبدُّدَ خصوصيته...

ارتكن إلى حجر وانكمش تحته. فأحس برطوبة سحرية، ونشوة تتخلله دون أن يدرك لها سببًا. إحساس فطرى لذيذ تغلغل داخله فجعله يسير وكأن شيئًا ما يندهه بجاذبية لا تُقَاوَمُ.

سار وهو يترنم بأناشيد لم يسمعها أو يرددها من قبل. وجد نفسه يسرع بفرحة لم تراوده من قبل إلا في الأحلام وأمنيات الشتاء المستحيلة. استحال تعبه نشاطًا وآلامه سعادةً وليدة. رطوبةٌ وبللٌ أحس بهما يتزايدان تحت قدميه. ابتهل. نظر لأعلى وأسرع خطواتخ. وجد مياها تتسرب، نقاء بديعًا يتخلق، وعينًا تنبع لذةً للشاربين والناظرين، بفرح جنوني نهل وبابتهال استساغ، شعر بأشياء جديدة تتخلق داخله، فتمرغ في المياه والطين الغريب المصدر، هدوء تسرَّب إلى جسده، استرخاء تشرَّب روحه، أحس بأن ضفة مجرى ماء تندهه بسحر عجيب وبقوة فوق طاقاته، فلا يشعر إلا وهو

يهبط بسلام وسكينة في حضن الأرض، فيبتسم ويرافق السكينة...

ملحق الإشاعات

- أكد أحد رجال قافلة كانت تسير من "هناك" أن شجرة وارفة نبتت في الجسد وعليها طيور تغنى بسحر لا يوصف.
- أذاع شخص ما أن أي مريض يشرب من النبع يشفى.
- تدوال الناس أن أحد المتسولين ـ وفى رواية أخرى أحد قطاع الطرق وربما رجلَ أعمال أو مستثمرًا ـ سكن هنا وأخذ يبيع من مياه النبع، فأصبح واسع الثراء.
- بثقة زائدة جزم أحدهم: "عندما حاولنا أن نلمس جسده، اختفى".

- صوِّرت الشجرة في إحدى الجرائد، فارتفعت نسبة مبيعاتها.
- وُضِع المكان على الخريطة السياحية للخطة الجديدة لرجال الأعمال وشباب المستقبل.
- قطع مشجِّعو منتخب كرة القدم للدولة المنافسة الشجرةَ.

1996

الحـروف

مهداة إلى جاك دريدا

جالس يطارد خيط دخان، يخط بقلمه بعض الحروف في قصته، ويشكل بعض الفراغات. يحتسى لوحده كأسًا فارغًا ويفرّغ الكلمات من مدلولاتها الغبية. ترتسم علامات الشهوة على قلمه ويضاجع كتابة نشوى. تتخلق الكلمات وتتقطر الدماء من قلب ربما كان موجودًا منذ الأزل عندما عُرضت عليه الأمانة. أبوه جالس يلهو بجانب الشجرة، فيقول له:

- هو الليل يا أبتاه، لماذا طلبتَ الفراق؟

عندما يحتسي نصف الكأس تكون الحروف مازالت مشتبكة مع بعضها أو مع خارجها في معركة سرمدية، وتكون نشرات الأخبار تعيد الأنباء نفسها منذ ملايين السنين، سالم ، جامل، لاطف، انطفأ ، فانطفأ البريق في عينيه. داروا، هزئوا، أنكروا، فعاقروا الألم.

حبات عيون سوداء تنير حروف الكتابة، ولكنها تقرر فجأة أن تختفي. وبالرغم من أن الحروف كانت قد قطعت كل صلتها بخارجها – كانت تظن أن ذلك النور جزء من كوكبها – فإنها تتعثر من جراء الاختفاء، الغياب، وربما الظهور الآخر.

واقفة الحروف على الحدود تبحث عن "سر أبي الهول" وتحملق في "جنود طيبة" الواقفين في الانتظار. تفك طلاسم "اللغز". لكنها تفرّغ الفك من أي مدلول يرتضونه أو يرتضيه من تناولوه بعد ذلك عبر مليارات النصوص...

لا تسير الحروفُ نحو المدينة. لا تستسلم لنشوة الأيادي المرحِّبَةِ ولا تمرق داخل السور كي لا تجلس على الملكة وتتزوج الكرسي زواجًا كاثوليكيًّا...

تسير في اتجاه دمه الأرجواني، وتلاعب الطفل الكبير في الخلايا الذي ربما لا يستطيع أن يعقل معنى الغياب أو معنى الحضور منفصلين.

جالس يطارد خيط نار، ربما كانت مشتعلة منذ الأزل وهو نفسه الخيط الذي تطارده، ومكتوب عليه ألاّ ينظر وراءه وإلا فَنِيَ في الجحيم وعاد إليهم بعد خروجه الذي ربما كان نقطة عابرة في حياة طريقه ولم يكن له مجد "دنقل".

يقول بلسانه الذي جاهد طريقه كلها كي يجعله يتحرك تحت إرادته:

- هذه هي بدايتك أو نهايتك أو وسطك معي – حسب أي مفهوم ترتئيه – لكن ذلك الجنون أو الطيش أو الاندفاع الذي تظنه فيّ ما هو إلا البذرة الأولى التي ستكوّن الاستدارة، أو ربما التفكك الذكي، لكنها من المؤكد ستلقي الضوء – وربما تسلطه – على سطحيتكم.

وبالرغم من الإجهاد الطافح من أعضائها، فإن الحروف لا تمل التشكّل والتخلّق والتكوّن في محاولة سحرية لربط وشائجها، وخلق تواصلها العبقري الذي تراوده الرغبة في خلق ظلاله.

الفراغات في النسيج تخلق عالمها الذي يبرز أكثر عندما ترى الكلمات الخلفية وتشكلاتها البكر. تتقافز الحروف، تتزاور، أحياناً تتبادل أماكنها وربما أدوارها، فتعمر القصة وربما القصيدة أو لا هذه ولا تلك، تدب فيها الحركة والنشاط، فيكفّ عن مطاردة الخيط الدخاني، يرسم بعض الحروف، أو ترسم نفسها، يتقافز، يتزاور مع أقرانه، قبله وبعده، أو حوله، ويحاول أن يشكل بنفسه وبهم بعض الكلمات خارج القصة أو.... أو يشرب لوحده كأسًا فارغًا.

1996

اكتبوني

دوائر النور تبرق في عينيه. قلبه المتفتت يتململ. شاشة التليفزيون المعتمة تواصل ضجيجها المُصِمّ. الرجل ذو العمامة الكبيرة يضع يدًا علي العجلة، يصفع التراب الصامت بيد وينطلق في الهواء.

- انتبهوا يا سادة. المؤلف ضعيف النظر لا يرى الرجل جيدًا، فالرجل ينطلق ووجهه غاضب.

عامل المقهى البشوش يأتي بالطلبات وابتسامته المشفقة تدمي القلوب...

- من قال لك إنها تدمي القلوب؟

...علي مجموعة من الأدباء في ركن بعيد من المقهى: ثلاثية عشق بِسُكْرٍ، سُكْرٌ بلا عشق، عشق بلا سُكْرٍ. دوائر الحركة المتواصلة وسكون العدم.

- من أدراك أن العدم ساكن؟ هو يتحرك؟ حركاته العصيبة تقتل كل شيء.

البنت بائعة اللب تستجدى الرواد. النادي يسبّ أجداد الذين أقفلوا بابه: يلعن التحرش الذي وقع داخله...

- أتخفي الحقيقة؟ لقد عاد إلي نشاطه بعد أسبوع

...يحن إلي الشباب الجالسين يتناقشون داخله. المؤلف الغبي مازال يحاول تجميع الشتات المتنافر. الكتيبات الصفراء والحمراء تحرم كلَّ شيءٍ، الوردة الحمراء ذبلت داخل الكتاب المهجور. عيون تودُّ الشكوى، يحتبس الكلام فيها ولا يجد من يستمع إليه.

هل ستذهب "البراءة" معنا غدا الرحلة؟ لا يهم. يبدو أنه لا توجد هناك براءات/برئيات.

- هل توجد هنا؟

هل "الحقيقة" ستذهب معنا؟ الحقيقة تناثرت مع ذرات الهواء المسافر منذ زمن، متعفنة مثل من أتت بها إلي الدنيا. تظن أنها مركز الكون والوجود والعتبات والشهوة والكمين والمداخل والحواشي والإهداء وكل شيء حتى الشواهد.

- قل لهم لماذا سافرتْ؟ أتخاف أن يتفكك نصك؟

الزمن ثابت مكانه. نحن الذين نتحرك. الحركة مستمرة. الوقوف موت.

- أهو موت أم موات؟

الموت قادم. لابد سنتعب ونتوقف. الولد الواقف في الشرفة يدغدغ أحاسيس البنت في الشرفة المقابلة. عندما قابلها ابتسمت له ابتسامة صفراء ومضت إلي هدفها.

- انتبهوا. لا يجيد التفريق بين الضمائر. البنت الأولي غير البنت الثانية.

الهدف نقطة بعيدة والذكي هو الذي تكون عيناه مجهرًا. انثناءات الحارة الضيقة. النسوة يتفاخرن برجولة "المعلم" وشنبه الذي يستطيع أن يرفع به الأهرامات. هرم يُطْعَنُ في رقبته. هاء الغائب أخذت صاحبها ودارته خلف الحدود المنظورة. النظر محدود بأبعاد الفراغ، القلب ليس له أبعاد فراغ، الفراغ والعدم يتسامران، يشربان نخبهما، يجريان،

يرقصان فوق جثث من يجرى في الشارع. الشارع طويل، الأجساد المتلاصقة والمتلاطمة تجعل الإنسان يلعنها ويسب العربات والأكتاف الضخمة. تضخّم الفراغ حولي. ضغط عليّ.

- ما الذي جاء بك إلي هنا ؟ أتتعدى علي خصوصية النص؟

يده الطويلة تحاول أن تجتث روحي. روحي المتجولة بين الصوفية السماوية والصوفية الأرضية تطيل جذورها.

- أهي صوفية أرضية، أم صوفية علمانية، أم علمانية صوفية؟ ألا تستطيع أن تحدد المصطلحات؟

الفراغ مُلحّ. الإلحاح يولِّد في القلب جسارةً. الجسارة في اليد مقتولة، تسحب باقي أشلائها وتضمها إلي جسارة القلب. النبض الساكن يهتز. اهتزاز جدران الصمت يطيح بغباره وتبدأ الكلمات في الإنبات... ستُسْحَبُ الأحلام من منابتها. الأمس لم يكن، اليوم لا يوجد كون، إذن الغد هو الذي سيكون – يجب أن يكون كون، ستنعدم الحياة، ستُسحب

الأحلام إلي تابوتها، سينمحي الوجود، إذا لم تتحطم الدوائر المغلقة وينهار جدار الزمن الصدئ، دقات الساعة الرتيبة تُحَشْرِج نسمات الهواء التي بدأت تصحو من قبرها.

- ما هذه التعليقات السخيفة ؟ أأنت مؤلف، أم كاتب أم راوٍ أم هذه رؤيتك؟ لماذا هذه الدكتاتورية الغبية؟

صبي المقهى يُحضر الشيشة ونظرة المواساة في عينيه علي ضحكاتنا الهستيرية. الأماني المتسربة من بين أيادينا تلهب حجر الشيشة فيحرق حلوقنا، الحلق ظمآن للماء، همزة الماء واقعة بين السطر: لا تقطع ولا تصل. السونكي يقطّع في الرؤوس... ياء السونكي تبصق علي كل الأبجديات قبلها أو بعدها. القبل بعد والبعد قبل وبينهما الأشياء غير محدودة. اللامحدود نصل إليه في الأحلام .الأحلام تمرر حلوقنا فنبصق علي كل البين بين . بيني وبينها حواجز ثقافية لا تقدر عليها.

- ما الذي جاء بها إلي هنا ؟ أهو استدعاء غبي ؟

- عزيزي القارئ أتمنى ألا يشوشر ذلك الراوي المتطفل عليك؟

- أنا راو متطفل؟ كنت أظنك راويًا متواضعًا، لكنه اتضح أنك راوٍ متعالٍ من برج سماوي. لماذا تجلس في ركن بعيد من المقهى وتنظر من بعيد إلي الأحداث هكذا؟

- كي أراها يا ... كما أن هذا ما أراه فقط، فلا تلم بغباء.

- أكملا، وكفًّا عن هذه الشوشرة. فلا أحد يشوشر علينا. نريد أن نرى أكثر.

الغباء مستمر في التزايد . يقولون إن الزيادة في كل شيء تقتله. الشيء واللاشيء كلمات تبادلت أدوارها.

- ما هذا الذي تكتبه؟ إلى أين ذهبت؟

الكتاب الذي طبعه علي نفقته الخاصة صودر. الكتاب الذي طبعه علي نفقه عامة حذف معظمه. بقيت بعض السطور المبتسرة. النخل سرح في الأعالي، لكن جريده

ينحني للرياح وهى تصفعه، والرياح لا تستطيع أن تزلزل الثعبان الرابض في قلب النخلة. تاء التأنيث، آسف تاء تأنيث النخلة، تتزوج كل الألسنة ويتوحدان للأبد. الألسنة غير مرنة الحركة. تحركها تاء التأنيث.

- لماذا تعمم هكذا بغباء؟

مضاجعة تاء التأنيث للألسنة لذة جسدية محضة، الألسنة تريد مضاجعة صوفية تسكر فيها، آسف أعرف أنك ستعلق، مضاجعة صوفية علمانية، أاسترحتَ؟ السُكْرُ صور ورؤى، ولهٌ وهيام، فناء في المطلق الأرضي وعشق، يُسْرٌ في التوحد وامتزاج، تلقي العشق وذوبان.

- لماذا تكتب هكذا؟

- أنا لا أكتب. هذا جزء من لا وعى النص يا...

الذوبان لذة كبرى، كبيرهم هو الذي يحطم التماثيل. التماثيل تعربد وتزني بكل من يسجد لها. الهاء المجرورة تجر الدم من العروق، تقطِّره على الأرض وتدكُّ عليه

بأحذيتها الثقيلة. ثاؤك يا ثقيلة "ثالوث"، قافك "قوم يُدهَسون"، ياؤك "يا ابن الكلب"، لامك لمعان يخفي تحته ظلامًا، تاؤك تيهٌ وسط الدوائر.

- دوائر دوائر دوائر. يا أخي ارحمنا! لقد جعلتني أظن نفسي دائرة أضيق علي نفسي الخناق أو يضيقونه عليّ، لا أدري!

- أتريدني أن أكون من "مهندسي الروح الإنسانية"؟ لا يا صديق، هل تظن نفسك مؤلفًا مضمَرًا؟

الحجر الرابض وسط الحارة يخيف كل الناس، يقيدهم داخل خوفهم وغبائهم. لكن "البومة العمياء"[3] تحطُّ فوقه، تنعق وتبول عليه وتطير إلي حجر آخر.

- إنك لا ترى جيداً يا صديقي، فهي تحطُّ علي الأشخاص أيضا في كابوس متصل من الحشيش المزور فما باله لو كان حشيشا حقيقيا!!

3 البومة العمياء رواية للكاتب الإيراني صادق هدايت، ويقال إنه كتبها تحت تأثير الحشيش.

ذلك الحجر يحطم كل التيارات، لكنه لا يستطيع أن يعدم بول الكلاب المتسرب من أو إلي داخله. الداخل خارج والخارج داخل والفلاش باك أو الفلاش إلي الأمام يعرِّي تزويرهما: التاء تردِّي. الزاي زور، الواو ولد مخصي، الياء يمامة مذبوحة، الراء رأي تائه، أسف، متوَّه، الهاء هَمٌّ كاذب، آسف مكذَّب. الميم ملك أعمى يقود عربة. الألف آهة طويلة، طويل ذلك العمود الكهربائي المظلم، اللمبة تُسْرَقُ دائماً والعمود مشدودٌ بالأسلاك لا يستطيع أن يمد يده ليضرب بها السارق. لا يعرف كيف يقاوم العنف بالعنف.

- حيلك يا سيادة الراوي! أتظن نفسك علي خشبة مسرح ثقافة جماهيرية بالأقاليم؟! أم تظن نفسك تلقى خطبة في مؤتمر لحزب؟ أم تظنك خطيباً علي منبر؟ ارجع إلي طريقك!

- أشكر لك ذكاءك يا صديقي.

الظلام يقولون إنه أبدي. نور القلب يحتاج من يلمّعه فيذيب الظلام ويحرقه. الحرق نار تتأجج فيها القلوب. النار

المتزايدة تزيد انفعالها. لابد يوما ستُخْرِج ما بها وتحرق الظلمةَ.

- ارحم نفسك يا صديقي! ستظل سنة كاملة في السرير.

- لا أستطيع ولا أريد.

الموسيقى الخفيفة المنبعثة من مياه النهر تعطِّر الآذان بنغماتها الرقيقة، النهر يجري، صبره طويل، يتألم من الأثقال الملقاة بداخله، والبطن تريد أن يتخلق داخلها جنين.

-أشفق عليك يا صديقي. أرحم نفسك وعقلك وقلبك.

عشق النهر للإنجاب يمنِّيه بهزة من احتضانه للأرض فتنزوي الأثقال ويتخلق...

- ما الذي جرى لك يا صديقي؟ لماذا توقفت؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، بالقلم. أمُتَّ؟ أشعر بضميري يؤنبني. أين أنت؟ بل أين جثتك؟ تلاشت؟ أستغفرك ذنبي. البقاء في حياتك أيها النص، لن تجد من يكملك. عليك أن تكمل نفسك...

- لا تأخذ في بالك يا عزيزنا، نحن الذين سنتولى الكتابة.

حاشية أولي: يبدأ صاحبنا، وربما أحد جوانبه، في الكتابة معهم.

حاشية ثانية: في الليل يظهر شبح المؤلف، يحوم حول المنضدة، عندما لا يرى أحداً يمتعض، يتكرر ظهوره لليال، ولكنه عندما يراهم حول المنضدة منكبِّين على الكتابة، ينشرح ويختفي للأبد.

14 أبريل 1995، 17 يناير 1996

الإنتاج

دخل متجهمًا. لم يلقِ سلاما. رفع يده في حركة لم نستطع أن نحدِّدَ مغزاها. لَعَنَنَا ولَعَنَ كل الناس. اتجه إلى الحمَّام ثم توجَّه نحونا، ألقى السلام وتركنا.

تجوَّل في أركان تلك الشقة الشريدة اليتيمة وأخذ يسخر ثم ضحك. كنا نسمع ضحكاته الحزينة ولم نستطع الضحك. شرع في القهقهة ونظر إلينا، فقهقهنا ثم تشنَّجنا.

رجع إلينا مبتسمًا، سلَّم علينا جميعًا وجلس وسطنا. قلنا كلنا في صوت واحد:

- ماذا فعلت بخصوص موضوعك اليوم؟

لم يجب، فقط أخذ نفسًا طويلا من الشيشة ونهض. غسل وجهه من ماء الصنبور الواهن وبحث عن منشفة، لكنه عاد خاوي الوجه وعيناه مليئتان بالحمرة الداكنة. خاطبني مبتسمًا:

- سأريك إنتاجي...

وأخذ ورقة وقلما وذهب إلى الحجرة... عاد إلينا والورقة مكتظة بالكلمات اللدنة النشطة وقال اسمعوا:

- أمسك القلم كعادته، لا، ليس كعادته[4]

وظلَّ يتمزَّقُ إلى أن وصل إلى

- زفرت الحروف ونظرت إليه بعتاب، فأدار لها ظهره وبكى.

وأخذ يبكى بحرقة كادت تشعل النيران في/على كل شيء، لكنه لم يدر لنا ظهره. بدأ يهلوس من شدة الألم، حسب علمي به لم يكن يهلوس بالطبع، وتكلم كثيرا:

- أيخشى بل أيخشون شعلة بروميثيوس، أم يخاف على الظلام المتجمد ويسرى في عروقه ودمه الثلجي أن يتفتت". "السبورة العمياء تتكلم". "كل عام يعيدون تشكيل الخريطة"."تقذفه الأيادي

---

[4] هذا الاقتباس والاقتباسات التالية من مجموعات فتافيت الصورة (ثقافة القاهرة 2001) وبدايات قلقة (المجلس الأعلى للثقافة 2004) ونقوش على صفحة النهر (دار التلاقي للكتاب 2009) والمجموعة الحالية وقصص أخرى للمؤلف كُتبت كلها في تسعينات القرن العشرين وتضمها مجموعات القصص: مجد أسود في عيونهم؛ ويعاند أسطورته القديمة؛ أولاد الحرام؛ ومجموعات القصص القصيرة جدا: مشهد جانبي؛ تأتيني من العالم الآخر، أن ترمي نفسك بحجر؛ قلوب للإيجار، وكلها نُشرت في دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني (مايو 2015).

ليصطدم بالجدران الأسمنتية". "تعرف دائما طعم الأسئلة عندما تتخثر في حلقها". "دائر بين تشيؤ الأشخاص وتشخيص الأشياء". "تتطلع إلى خيوط العصافير التي تتماوج في الهواء". "جالس يطارد خيط دخان". "صوتها الموغل في البعد يترقرق في أذنيه". "الولد يعاند تلك الأسطورة القديمة". "هاهي تلح في الخروج والحفرة تصر على العناد والمكابرة". "صامتا جاء وصامتا ارتحل". "لم يتكلم، فقط نظر بذهول". "ألقى السلام. لم يجبه أحد". "فقد الفتى إيمانه بالوراثة والتوريث". و"مهما كان، مازال يصارع". "في وسط كلامه تركهم". "نظر بعضهم إلى القضبان". "قالت كلمتها وانصرفت". " لا. لا ترحلوا ، سادتي قبل أن تقولوا كلمتكم". "ابتسم وراح مع السكينة"...

نام. وفي الصباح بحثنا عنه، لم نجده. فقط عرفنا أنه أخذ معه بعض الأوراق. علمنا بعد ذلك أنه بدأ في مشروع

كتابي كبير، لكن للأسف حطَّموا علينا أو عليه باب الشقة واستلبوا كل الأوراق).

1997

عتبات

عتبة أولى

ولمّا كانت الليلة الثانية بعد الألف وكان أقارب زوجة شهريار الأولى الموتورون مازالوا يخبئون أمراً خطيرا بعد أن تأكدت مخاوفهم ولم تُقْتَل شهرزاد، بل عفا عنها الملك وشاركها الحكم وأورث أولادها الممالك – همس أحدهم في أذن أخيه:

- نقتل دنيازاد فهي التي حثَّتها على الحكي.

وعندما انطلقت حشرجات دنيازاد، تيقن الأقارب أنها انتهت، فتسلل أحدهم إلى مخدع شهرزاد وكان قد دس خنجرا مسموما تحت عباءته...

قــالوا:

- إن الألف الثانية من الحكايات لم تكتب لأن شهرزادَ ظلَّت أياما تتجرع السم بطيئا في دمها وبعدها ماتت

- إن شهرزاد حين قطعَ لسانَها أحدُ الموتورين سكتت عن كل أنواع الكلام. ولمّا كان الملك قد استمرأ لعبة السماع، قتلها حالما بيوم قد تأتى فيه راوية أخرى.
- إن راوي الحكايات كان قد طعن في السن ولم يستطع أن يكتب أو يملي أي حكايات.
- إن أكبر ملوك جزر الواق واق أرسل أحد جنوده إلى شهرزاد، فحملها وألقى بها في أرض الوحوش، ولم يسمع أحد صوتها بعد ذلك إلا من خلال "ألف ليلة وليلة"...

عتبة ثانية

في البدء، كان "مروان" يغني. يعلي صوته بالغناء فيسمعه القاصي والداني، تتراقص الأشجار في عنان السماء، تراقص النجوم فينام كل المغنيين والسامعين وهم يملؤون جفونهم بالسعادة والرضا.

في الوسط، كان أحد الموتورين يدور على البيوت والشوارع يقسّي القلوب على مروان وما هم له من السامعين، يطردونه خارج قراهم ومدنهم، فيحتمي بالصحراء ويزأر. يعلى صوته بالزئير، يتردد زئيره في الآفاق، يسمع صهيلَ خيل بعيدة، يجري إليها، وقبل وصوله يبطئ العدْو ويتستر بالظلام، يختفي خلف خيمة هؤلاء الشباب الذين وجدهم يمرحون، يختبئ بعد أن يجدهم كثيري العدد، ويسرق أحد الخيول، يجري كالفارس المغوار. يدق باب مروان، يفتح له منشرح الفؤاد طيب الخاطر، فينزل على صدره بذلك الخنجر، يلفظ مروان أنفاسه الأخيرة وهو يطلب من ابنه أن يذهب إلى صاحبنا ليتعلم على يديه.

العتبة الثانية بعد الألف

جرى الأقارب الموتورون لزوجة شهريار الأولى في جنازة دنيازاد، ومن بعدها شهرزاد ومن بعدها مروان. ومن بعده كان صاحبنا الذي لم تبدأ الكتابة لديه رغبة في الاعتصام من الموت بل رغبة في الحياة والوجود والكتابة.

نظروا إلى بعضهم، خبأوا ضحكة كادت تبدر منهم على سيرهم إلى قبره السري، تجهَّموا، وبعثوا إلى أصدقائه برقية عزاء من ورق أحمر مرسوم أعلاها خنجر.

1997

أمـا قبل

-1-

عندما قلت لكم: "أنا هنا"، تخاذلتم واندحرتم إلى جحوركم . لماذا تراجعتم؟ لماذا انسحبتم؟ اشفوا غليلي بكلمة واحدة. فقط قولوها وارحلوا إلى حيث شئتم أم لم تشاءوا. لماذا لا تتركوني أزرع نبتاتي في الصحراء وإن لم أستطع أن اعتنى بها، أتركها للزمن علها في يوم تخرج في سِفر متصل من العذاب، من السعادة، لا يهم. فقط اغرسوها وارحلوا إن شئتم. لا تقتلوني على نظرة تتصيدونها أو على رضا علوي حل بي. لماذا تنظرون هكذا؟ أتخافون وجودي؟ أم تخافون من وجودكم بيني أو فيّ؟ حددوا موقفكم، ربما كان الموقفان سواء، لكن قولوا أي شيء. المهم في الموضوع، لا تهيموا بعيداً عنه وتتركوه وحيداً أعزل من أي أحد يداعبه، أو يضيف إليه بعض الكلمات ....

-2-

لا. لا ترحلوا، ساداتي، قبل أن تقولوا كلمتكم. أتحسبونكم على خشبة، تمثلون نصاُ، مجرد تمثيل لا أكثر ولا أقل، دون استيعاب للنص. لا تنسحبوا قبل أن تعيشوا أو حتى تخلقوا الإحساس بالحياة في النفوس. ظمئت الشفاه ويبس الحلق وهو دائر يبحث عمن يتكلم معه أو له، يبوح له ويهدأ. القلوب تضرب عن الحياة إذا تركتموها وحيدة تعانى الفُرقة، والغربة والألم، تصارع الموت والموات والعدم. لا تنتهوا قبل أن تبدؤوا. وإن كان أحياناً من يريد أن يبدأ بداية جديدة، عليه أن يموت أو ينتهي أولاً [5]. فقط ابدءوا واتركوا الباقى يفعل به الأحفاد ما يتراءى لهم من البناء والإكمال. شمالا أم يمينا تتحركون؟ يجب أن تحددوا موقفكم، حددوا وانتهوا أو ابدءوا كما تشاءون....

---

[5] إعادة صياغة لعبارة للأديب سلمان رشدى .... In order to be reborn , you

-3-

متروكة للقارئ

والمروى عليهم

والخطابات الضمنية

1996

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر وروائي ومترجم وناقد ودكتور جامعي. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. وقام في يناير 2014 بتأسيس مجموعة سنا الومضة على الفيسبوك بالاشتراك مع الأستاذ عصام الشريف (مصر) والأستاذ عباس طمبل (السودان)، وهي مجموعة تعني بشئون القصة الومضة نظريا وتطبيقيا ونقدا وإبداعا. كما قام في شهر مايو 2014 بتأسيس دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

الجنسية: مصري

فهرس